المجتمع والتاريخ في المنظور القرآني

■ هذا كتاب قيم لايستغني عن مطالعته المثقفون والمعنيون بالعلوم الاجتماعية الاسلامية. لذلك ارتأت المجلة ترجمته وتقديمه الى قرائها الكرام في حلقات متسلسلة تعميماً للفائدة.

الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي
ترجمة: جعفر صادق الخليلي

٣

خامساً ـ المذهب الاجتماعي والمذهب الفردي

ان التفسيرات المختلفة التي ذكرت لهذه القضية المهمة من قضايا العلوم الاجتماعية، تنقسم الى مجموعتين كبيرتين: المجموعة الاولى تضم الآراء التي ترى الأصالة للمجتمع، أو المذهب الاجتماعي. والمجموعة الثانية تضم الآراء التي ترى الفرد هو الأصل. أو المذهب الفردي.

١ ـ المذهب الاجتماعي:

ان الذين يذهبون هذا المذهب يؤكدون الخصيصة الجماعية للظاهرات الاجتماعية، و يرون المجتمع كواقع عيني، يتميز عن الأفراد الذين يؤلفونه، وله آثار وخصائص خاصة لاتوجد

في أفراد الانسان، و بعبارة اخرى ، يستند هؤلاء ، في العلاقة بين الفرد والمجتمع ، على المجتمع ، و يقولون ان المجتمع هو وحده الذي يمتلك واقعاً أصيلاً ، بينما الفرد لا يتمتع إلّا بواقع تابع . فكما ان الانسان كلّ مركب وله حياة واحدة ، وان كل عضو من أعضائه ، وان كان سليماً لا عيب فيه ، ولكنه إذا انفصل عن جسم الانسان لم تبق فيه تلك الحياة السابقة . كذلك هو المجتمع الانساني الذي يتركب من الأفراد ، فان له حياته الخاصة به ، بحيث ان مجموعة من آحاد الانسان المشتتين غير المترابطين لا تكون لهم تلك الحياة نفسها . أي ان المجتمع « شخص » أو « فوق شخص » يتركب ـ كسجم الانسان الذي يتألف من الأعضاء والأنسجة والأجهزة ـ من أفراد وله حياة واحدة خاصة به ، وليست هي حاصل جمع حيوات الأفراد الذين يتألف منهم .

يمكن القول أن أصحاب هذا الاتجاه ـ و يطلق عليهم أحياناً اسم « أصحاب علم الوجود الاجتماعي » ـ هم جميعاً ورثة هيگل Hegel الفيلسوف الالماني المشهور (١٧٧٠-١٨٣١م) ، الذي يرى انه « ليس ثمّة شيء حقيقي في النهاية سوى الكل »[1] وذلك « لأن ماهية كل جزء من العالم على درجة من المتأثر العميق بعلاقة ذلك الجزء بسائر الأجزاء و بالكل بحيث لا يمكن التصريح بأي بيان صادق عن أي جزء من الأجزاء ، اللهم إلّا إذا نسبنا ذلك الجزء الى موقعه من الكل . ولما كان موقع كل جزء في الكل يرتبط بمواقع جميع الأجزاء الاخرى ، فان البيان الصادق عن موقع ذلك الجزء يكون في الوقت نفسه بياناً يعين مواقع الأجزاء الاخرى أيضاً . إذن ، ليس ثمّة سوى بيان صادق واحد ، وليس ثمة حقيقة سوى الحقيقة الكلية . وعليه ، فلا حقيقة لشيء إلّا الكل ، وذلك لأن كل جزء ، عند انفصاله ، تنقلب ماهيته بسبب هذا الانفصال ، فلا يبدو كما هو في الحقيقة تماماً . ومن جهة اخرى ، إذا اخذ الجزء ، من حيث علاقته بالكل ، بعين الاعتبار كما ينبغي ، فلا يكون قائماً بذاته وقادراً على الوجود لوحده ، إلّا من حيث كونه جزءاً من ذلك الكل الذي هو وحدة يمكن أن تكون له حقيقة تامة[2] » . و بتعبير آخر : « في الواقع لا وجود إلّا لمقولة واحدة ، لحقيقة واحدة ، وتلك هي العلاقة . وعليه ... فان الجواهر ـ كأفراد الانسان ـ تتعين بعلاقاتها ، وهذه العلاقة هي التي تجعلها كما هي . أي انها مجموعات من العلاقات . فاذا كان الأمر كذلك ، فيجب النظر الى المجتمع على انه كلّ حقيقي . والفرد الانساني الذي يتعين وجوده بالعلاقات الاجتماعية يظهر هنا ... بشكل شيء فرعي أضعف حقيقة من حقيقة المجتمع . »[3]

اذن ، يعتقد هيگل وأتباعه ، باختصار ، ان الكل هو وحده الذي يمكن النظر إليه على انه حقيقي وواقعي ، أو جوهري وقائم بذاته ، وان الفرد الانساني « لحظة ديالكتيكية » في المجتمع ، لا

أكثر[٤]. ان المجتمع البشري حقيقة «روحانية» و«أساس» ، وان الفرد لا وجود له في الحقيقة إلّا بوساطة المجتمع ، وفيه ، ومن خلاله .

يعتقد بعض أصحاب علم الوجود الاجتماعي ان الفرد ، قبل دخوله الحياة الاجتماعية ، يكون انساناً «بالقوة» لا «بالفعل» ، وانه بعد أن يصبح اجتماعياً ، يتفتح فيه تدريجياً استعداده -الذي كان مختفياً وغير متحقق- ليكون انساناً ، و يتحقق ظاهراً للعيان. ومن هؤلاء الفيلسوف الألماني (اوتوشبان) Otto Spanne الذي يقول: «ان الانسان ، قبل دخوله المجتمع ، يكون وجوداً بالقوة محضاً ، ولا تكتمل فرديته وماهيته الأخلاقية إلّا في المجتمع الروحاني»[٥] .

ومهما يكن من أمر ، فخلال القرنين الأخيرين ظهر كثير من العلماء والفلاسفة الاجتماعيين في الغرب ، و بخاصة في المانيا ، ممن يرون هذا الرأي أيضاً. ومن هؤلاء يمكن ان نشير الى أصحاب مدرسة «علم نفس الامم» التي اسست سنة ١٨٥٩ على يد المفكرين الالمانيين (لازاروس) M.Lazarus و(شتاين هال) H.Steinhal . وهو علم يرى في «الامة» حقيقة جمعية ذات ماهية روحانية -أو روحاً عامة- ليست الروح الفردية سوى حصيلتها[٦] . كذلك يمكن أن نشير الى (ازوالد شبنگلر) Oswald Spengler (١٨٨٠-١٩٣٦) المنظّر السياسي والفيلسوف والعالم الاجتماعي الالماني ، الذي كان يعتقد : «ان لكل حضارة خصائصها الخاصة ونظرتها الخاصة الى العالم ، ولها فلسفة متميزة في الحياة ، والفن ، والعلم ، والدين ، بحيث يصعب التفاهم المشترك بين حضارتين متباينتين»[٧] .

وهناك العديد من روّاد علم الاجتماع ومؤسسيه يميلون الى أمثال هذه النظريات ، مثل (سان سيمون) Saint Simon (١٧٦١-١٨٢٥) الفيلسوف الاجتماعي والعالم السياسي الفرنسي ، الذي كان (اوگست كُنت) من تلامذته وأتباعه. يرى هذا الفيلسوف الفرنسي ان المجتمع أشبه «بالمصنع الكبير الذي لا يسعى للسيطرة على الأفراد فحسب ، بل وعلى الطبيعة أيضاً» . و«ان الوجود الحقيقي يتشكل من اتحاد الأفراد ، إلّا ان هذا الوجود الحقيقي [أي الوجود الاجتماعي -م] سعي جمعي وفردي في الوقت نفسه»[٨] .

و يرى (برودون) Proudhon (١٨٠٩-١٨٦٥) المفكر الاجتماعي الفرنسي ان المجتمع : «كائن حي ، ذكي ، ذو نشاط خاص ، و يسير وفق قوانين لا تعرف إلّا بالملاحظة»[٩] .

كما ان (اوگست كُنت)) يرى : «ان المجتمع بمثابة فرد عظيم له وجود خارج وجود الأفراد»[١٠] وهو «يكشف عن خصيصة اجتماعية خاصة حقيقية لا تتغير ، و يربطه بمفهوم المجتمع

ككل حقيقي وعيني ، وإن كان يخلطه خطأ بمفهوم البشرية »[11] ولذلك « فهو يقاوم الرغبة في تطبيق القوانين الطبيعية على مساحة الظاهرات الاجتماعية ، و يدرك جيداً خصوصية علم الاجتماع وعدم امكان تحويلها الى العلوم الطبيعية »[12] .

اننا لا نريد هنا أن نعدد الذين يؤيدون «علم الوجود الاجتماعي» ، فلا هو ميسور ولا هو مطلوب ، إنما الذي يهمنا هو وجه الاشتراك بين هذه الاتجاهات المتعددة والمختلفة . ويمكن التعبير عن وجه الإشتراك هذا بأنه « التركيب الحقيقي للمجتمع و وحدته » . ان الاجتماعيين يختلفون بشأن الكثير من المسائل ، من ذلك ، مثلاً : هل يمكن تصور الفرد الانساني خارج المجتمع ، أم ان ولادة شيء ما لا يعني سوى دخوله الى المجتمع ؟ هل الفرد ، قبل أن يدخل المجتمع ، انسان بالفعل ، أم انسان بالقوة ؟ هل البشر ، قبل أن يصبح اجتماعياً ، يكون مفتقراً الى كل أنواع التصور ، والمفاهيم ، والفكر ، والاتجاه الفطري ، أم انه لم يخل يوماً من مجموعة من النماذج والقوالب الفكرية والعاطفية ؟ و بتعبير آخر ؛ هل الانسان ، قبل أن يصبح اجتماعياً ، يكون كاللوح الأبيض الخالي من كل شيء[13] ، أم ان فيه كتابة ما ؟ هل الفرد ينفعل بالمجتمع فقط ، أم يمكن أن يكون فاعلا فيه أيضاً ؟ ان أجوبة الاجتماعيين عن هذه الأسئلة وعشرات اخرى ليست متشابهة ، ولكنهم مجمعين على ان المجتمع مركب واقعي و وحدة حقيقية .

فاذا كان المجتمع تركيباً واقعياً و وحدة حقيقية ، فانه سيكون شيئاً مختلفاً عن الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والانسان ، وستكون له خصائص لا تلاحظ حتى في الانسان . وعليه ، سيكون خاضعاً لقوانين خاصة تجب دراستها بصورة منفصلة . ولهذا السبب نجد دعاة المجتمع يميزون بين علم النفس بصفته علماً يدرس الأفراد ، وعلم المجتمع بصفته علماً يدرس المجتمعات ، تمييزاً قاطعاً ، و يعتقدون ان معرفة الظاهرات الاجتماعية و بيانها وتفسيرها لا يمكن أن يتم عن طريق تحليل سلوك الفرد الانساني . ويمكن تقسيم دعاة المجتمع ، وفقاً لافراطهم وتسرعهم فيما يتعلق بهذا الموضوع ، الى ثلاث فئات :

الفئة الاولى: هي التي تنكر اصلاً وجود ظاهرات نفسية صرفة ، وتعتقد ان الانسان غير الاجتماعي إمّا انه لا وجود له ، وإما انه إذا وجد فانه لا تكون له هوية انسانية ، وان من الخطأ التصور بأن أفراد البشر قادرون على الحياة خارج المجتمع ، أو انهم قبل تجمعهم كان لهم وجود انساني أصلاً ، لأننا ما ان نضع أقدامنا في ساحة هذا الوجود حتى تبدأ الدنيا عملها فينا ، فتحيلنا من مجرد كائنات حية الى كائنات انسانية والى أفراد اجتماعيين . كل فرد انساني في أية مرحلة

من مراحل التاريخ يولد في مجتمع ، و يتشكل منذ يومه الأول وفق ذلك المجتمع ، وان اللغة التي يتكلمها ليست ارثاً فردياً ، بل هي ضرب من الاكتساب الاجتماعي يكتسبها من الفئة التي ينمو بينها و يترعرع . والمحيط الاجتماعي يؤثر في طراز تفكيره أيما تأثير ، إذ ان جميع أفكاره الأولية تنتقل إليه من الآخرين . اذن ، فالفرد بغير المجتمع يكون عديم اللغة وعديم الفكر ، ومن فقد اللغة والفكر ـ ان كان لمثل هذا وجود ـ لا يكون انساناً . و بالاجمال ، ما من سلوك يكون فردياً محضاً ، بل لابُدَّ أن يكون للمجتمع تأثير فيه ، قلّ أو كثر . ان الانتحار يبدو في الظاهر عملاً للفرد فيه حرية كاملة ، بينما كل عمل آخر يكون ذا علاقة بعضويته في المجتمع بنحو من الانحاء ، ولكن الانتحار ـ كما يقول اميل دوركيم Emile Durkheim ، العالم الاجتماعي والفيلسوف الفرنسي الشهير ، في أحد كتبه الثلاثة الرئيسة : «الانتحار» ـ لا يكون عملاً مستقلاً عن الظروف الاجتماعية ، وعليه ، فان علم النفس ليس علماً حقيقياً ، لأن اللذات ، والآلام ، والأحاسيس ، والانفعالات ، والعواطف ، والميول ، والتصورات ، والأفكار ، والخواطر ، والأحكام ، والاستنتاجات ، والعادات ، والقرارات التي يصدرها الانسان ارادياً ليست فردية بحتاً ، بل هي تتخذ شكلها ولونها من الحياة الاجتماعية ، وعليه تجب دراستها في اطار علم الاجتماع . ولهذا انبرى اوگست كُنت لاخراج علم النفس من حوزة العلوم والمعارف استناداً الى انه علم لا موضوع له ، ثم قام بتصنيف العلوم بحسب سلسلة المراتب ، جاعلاً الرياضيات في صدر العلوم لأن جميع العلوم الاخرى تستفيد منها وتعتمدها ، وتأتي العلوم الاخرى بحسب الترتيب التالي : علم الهيئة ، فالفيزياء ، فالكيمياء ، فعلم الحياة ، فعلم المجتمع ، ولم يترك في هذا التصنيف مكاناً لعلم النفس لأنه كان يعارضه ، وجعل دراسة المجتمع ، ككل ، هدفاً له[١٤] .

الفئة الثانية من دعاة المجتمع ، وان كانت ترى ان علم المجتمع علم مستقل تماماً ، إلاّ أنها اعترفت لعلم النفس ببعض المكانة ، ولكنها وضعته تالياً لعلم المجتمع . يقول أعضاء هذه الفئة : صحيح ان جميع الظاهرات النفسية تحدث على الصعيد الاجتماعي الذي يؤثر فيها تأثيراً عميقا ، ولكن هذا لا يمكن أن ينفي وجود أي أمر فطري في الفرد ، والواقع هو ان لكل فرد مجموعة من الدوافع الفطرية التي يعتورها التغير ، بالطبع ، تحت ضغط المجتمع ، فتظهر في كل مجتمع خاص بشكل و بصورة خاصة . وعليه ، فعلم النفس ليس علماً بلا موضوع ، بل هو علم يتناول بالدرس الدوافع الفطرية الباطنية في الانسان . وبناء على ذلك ، وبالنظر لأن تأثير المجتمع في تعيين سلوك الفرد كبير جداً وحاسم ، كان لابُدَّ من الشروع أولاً بدراسة خصائص الظاهرات الاجتماعية

وآثارها، لكي يمكن بعد ذلك ادراك الظاهرات النفسية. اذن، فلعلم المجتمع أولوية منطقية على علم النفس، أي أن دراسة الفرد لا يمكن أن تكون قبل دراسة المجتمع، وليس العكس.

وهذا ما يعتقده الكثيرون من أتباع فرويد Freud العالم والمحلل النفسي النمساوي الشهير (١٨٥٦-١٩٣٩)، ونخص بالذكر منهم كلاً من كارن هورني Karen Horney عالم النفس الاجتماعي الامريكي المعاصر، واريك فروم Erich Fromm عالم النفس الاجتماعي الامريكي الالماني الأصل (١٩٠٠-١٩٨٠)، يقول هذا الأخير: «على الرغم من ان بعض الحاجات، مثل الجوع والعطش والغريزة الجنسية مشتركة بين الجميع، فان الدوافع، التي تميز الأفراد بعضاً عن بعض، مثل الحب، والبغض، وحب السلطة، والرغبة في التسليم، والتمتع باللذات الحسية أو الخوف منها، كلها من نتاجات المجتمع. ان أجل ميول الفرد أو أقبحها ليست جزءاً من طبيعة (بايولوجية) غير قابلة للتغير، بل هي ناتجة عن مسيرة المجتمع الخالق للانسان. و بعبارة اخرى، ان المجتمع، بالاضافة الى قيامه بالردع [كما كان فرويد يقول][١٥] يقوم بالخلق أيضاً. ان طبيعة الانسان وانفعالاته واضطراباته ناتجة عن ثقافة المجتمع، والانسان نفسه من أهم مخلوقات سعي البشرية الدائب الذي نطلق على حكايته اسم التاريخ»[١٦].

الفئة الثالثة: وتتألف من الذين لا يهمهم تقديم علم المجتمع على علم النفس أو بالعكس، وإنما هم يصرون على الفصل بين هذين الفرعين من فروع المعرفة. فمثلاً رادكليف براون A.R.Radcliffe-Brown العالم الانساني البريطاني (١٨٨١-١٩٥٥) «يستنتج ان علم المجتمع وعلم النفس نظامان مختلفان تماماً، فالأول يدرس النظام الاجتماعي، والآخر يدرس النظام النفسي، و يعتقد ان دمجهما غير ممكن»[١٧].

٢ ــ المذهب الفردي:

يهتم هذا المذهب بالخصائص الفردية للظاهرات الاجتماعية. و يقول أتباع هذا المذهب: ان الأفراد هم وحدهم الذين يفكرون و يعملون، وان المجتمعات والفئات ليست لها بذواتها أية حقيقة، وإنما هي الأفراد وصور من العلاقات والمناسبات بين الأفراد. و بعبارة أبسط، يرى أصحاب المذهب الفردي انه مثلما ان «العائلة» تتكون من الأب والأم والأطفال، وربما بعض الأشخاص الآخرين، لاغير، كذلك «الأمة» تتألف من مجموع أفراد تلك الأمة، لا غير. وفي الحقيقة، لا وجود إلّا للأفراد الذين يطلق على مجموعهم اسم «المجتمع». و بالطبع، أفراد المجتمع ليسوا مثل حبات الرمل التي يتكون منها كثيب الرمل، بل هم يشعرون الواحد بالآخر،

ولهم علاقات فردية ، و يتبادلون التأثير والتأثر فيما بينهم ، كما أنهم ليسوا من مرتبة واحدة . لذلك ، فان كثيب الرمل لا يكون شيئاً اكثر من مجرد كومة من حباته ، بينما المجتمع هو حاصل جمع جميع أفراده زائداً مجموع العلاقات وللمناسبات القائمة بينهم . ولكن المهم في الأمر هو ان تركيب الأفراد وتأثيرهم وتأثرهم ليس تركيباً حقيقياً بحيث يجوز لنا أن نعتبر « المجتمع » وحدة حقيقية . لذلك فان الضغط الذي يضعه المجتمع على الفرد ـ كما يقول أصحاب المذهب الاجتماعي ـ ليس سوى نتيجة تأثير سائر أفراد المجتمع على فرد بعينه . ان دقائق الجسم ، كالألكترونات والبروتونات والنيوترونات الموجودة في الذرة لها تأثيرات وتأثرات متبادلة أيضاً فتتجاذب أو تتنافر ، إلّا ان هذا لا يعني ان الذرة شيء أرفع وأكثر من مجموع تلك الدقائق فيها وما يتبادلونه من التفاعلات . كذلك هي حال حقوق الفرد و واجباته نحو المجتمع ، فهي ليست سوى ما للفرد وما عليه من حقوق نحو الأفراد الآخرين في المجتمع . فمثلاً واجب الفرد نحو الدولة هو واجبه نحو رئيسها وأعضاء حكومتها وسائر المواطنين ، ولا شيء غير هذا .

اذن ، المذهب الفردي لا يعتبر التفاعلات الجارية بين الأفراد شيئاً غير واقعي ، ولكنه يراها قائمة بالأفراد أنفسهم و بآثارهم . كما انه لا ينظر الى « المجتمع » بصفته حاصل جمع الأفراد وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، كمركب حقيقي و وحدة واحدة ، ولذلك فلا يرى له أي تأثيرات أو مميزات خاصة به ، و يعتقد ان جميع الظاهرات الاجتماعية يمكن تفسيرها من قبل علم النفس .

ان من أكبر دعاة المذهب الفردي في الغرب هو جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣) الفيلسوف والاقتصادي البريطاني المشهور. كان هذا يعتقد : « ان أفراد البشر عندما يجتمعون لا يتحولون الى مادة جديدة »[١٨] بحيث تكون لها صورة جديدة تسمى « المجتمع » وتكون له آثار خاصة به وناجمة عنه . يقول هذا الفيلسوف في أحد كتبه الموسوم باسم « نظام المنطق » : « ليس للكائنات الانسانية في المجتمع أي صفة خاصة سوى كونهم نتاج قوانين طبيعة الفرد البشري أوامكان « دمجهافيهم »[١٩] ولذلك « اهتم جون ستيوارت مل باستخراج القوانين التي تتحكم في الطبيعة الانسانية ، واطلق اسم (علم معرفة الطبيعة) ethology على الدراسات الخاصة بهذه القوانين، وبخلاف اوگست كنت الذي لم يدخل علم النفس ضمن ترتيبه العلوم وتصنيفه لها ، كان مل يرى ان علم النفس التجريبي هو المحور الأصلي للعلوم الانسانية والاجتماعية »[٢٠] . وكان أيضاً : « يعتقد ان العلم العام لا يمكن أن يتقبل المجتمع كشيء قائم بذاته ، إلّا إذا امكن اثبات ان التعميمات التي توصل إليها هذا العلم عن طريق الاستقراء يمكن أيضاً التوصل إليها

عن طريق قياس قوانين العقل البشري»[٢١].

ان من بين علماء الاجتماع -بمعنى الكلمة- الذين يجب أن يرد ذكرهم أولاً هنا هو جبريل ديتارد Gabriel de Tarde (١٨٤٣-١٩٠٤) العالم الاجتماعي الفرنسي وواضع «علم النفس الاجتماعي»، الذي يقول: «ليس للمجتمع صفات خاصة متميزة ومستقلة عن الفرد. ان بنية الهيئة الاجتماعية قائمة على أساس الخصائص الفردية، وعلى رأسها حب التقليد عند الانسان، إذ ان الفرد في طفولته يقتدي بسلوك الكبار وأعمالهم، وفي مرحلة الشباب وبعدها يقع تحت تأثير سلوك الشخصيات العالمية المشهورة و يقلدهم. أي أن منشأ السلوك الفردي والجماعي للانسان هو غريزة التقليد عنده»[٢٢]، ولهذا فهو يعتقد ان علم الاجتماع لا يمكن أن يكون علماً مستقلاً قائماً بذاته، بل يجب أن يكون تابعاً لعلم النفس، وبعبارة اخرى، يرى ديتارد «ان علم الاجتماع نوع خاص من علم النفس يقوم بدراسة الظاهرات النفسية التي تحصل نتيجة تلاقي مختلف الوجدانات»[٢٣]، و يطلق على هذا النوع الخاص من علم النفس اسم «علم نفس الذهنيات» أو «علم النفس المشترك» وعليه، فانه -بخلاف اوگست كنت الذي لم يضع مكاناً لعلم النفس بين العلوم، بل قال ان دراسة أحوال الفرد يقوم بها علمان هما الفسلجة وعلم الاجتماع- قال بمكانة خاصة لعلم الاجتماع «وكان يعتقد انه لتلقي ظاهرات التحول الاجتماعي والتطور والنهضات الدينية والآثار الجماعية الاخرى، يكفي أن نستخدم قوانين التقليد استخداماً صحيحاً»[٢٤].

وهناك عالم آخر اسمه «لاكومب» Paul Lacombe (١٨٣٤-١٩١٩) يتخذ اسلوباً آخر في استنتاج علم المجتمع من علم النفس، فيقول: «صحيح ان ما ندرسه في التاريخ هو الأحداث التصادفية الخاصة، وان علم الاجتماع يتناول بالبحث التجمعات ذوات الصبغة العامة، ولكن هذه التجمعات كانت ابتداء أحداثاً تصادفية ثم استمرت وعمّت. أي ان التجمعات هي أحداث تصادفية حالفها النجاح بسبب سدها حاجات الانسان. و بناء على ذلك، علم الاجتماع الذي يدرس التجمعات، يستعين بالتاريخ، و بالأحداث التصادفية، و بعلم النفس لدراسة الاحتياجات. ففي علم النفس، مثلاً، يقررون أن أشد الحاجات ضرورة هي الحاجات الاقتصادية، أي ما يتعلق بالحياة المادية، كالغذاء والملبس والمسكن. إلّا ان هذه الفرضية يمكن أن تدرس وان تثبت بالاستعانة بالتاريخ وعلم الاجتماع. ان تأثير الشؤون الاقتصادية (خاصة ما يتعلق منها بالملكية) كبير في سائر الشؤون الاجتماعية. وهكذا يساعدنا قانون علم الاجتماع هذا، مثل

قوانين سائر العلوم، على التنبؤ بالأحداث. فمثلاً إذا لم يعد أحد التجمعات ينسجم مع حاجات الناس ورغباتهم، فاننا يمكن أن نتنبأ بتغيّره»[٢٥].

ان نظرية(تارد) هذه قد انتشرت في الدول الانكلوسكسونية و بخاصة في الولايات المتحدة الامريكية. فثمّة علماء مثل و يليام مكدوگال W.Mac Daugalle (١٨٧١-١٩٣١) عالم النفس الاجتماعي البريطاني، وفرانكلين هنري گيدينگز Franklin Henry Giddings (١٨٥٥-١٩٣١) العالم الاجتماعي الامريكي، ومكاتب مثل «مكتب الاتصالات» في شيكاگو، أيدوا (تارد) في مقولة ان الدراسات الاجتماعية هي نفسها دراسة سلوك تجمعات من (أفراد) المجتمع، وهي الاتصالات الاجتماعية لأفراد الناس، وهكذا أبدلوا علم الاجتماع الى نوع من علم النفس ــ علم النفس الجماعي.

أشهر عالم اجتماعي لم يؤمن بالتركيب الحقيقي للمجتمع ووحدته هو ماكس و بر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) العالم الاجتماعي والحقوقي والمؤرخ الالماني الكبير، الذي اعتبر «الوجدان الجماعي» فرضية خيالية محضاً. كان يرى «ان المجتمع، في نظر علم الاجتماع، ليس حقيقة قائمة بذاتها»[٢٦]، وإنما الفرد هو وحده حقيقة قائمة بذاتها. ان اختيار الهدف، ودراسة وسائل الوصول الى الهدف وتقويمها، والتنبؤ بالموانع والمشكلات، والعزم والتصميم على التنفيذ، ومن ثم البدء بالعمل، كل ذلك من عمل الفرد. وعليه، فان الظاهرات الاجتماعية لا يمكن بيان معقوليتها وتبيانها من حيث علم الاجتماع، إلّا إذا نظر إليها من حيث السلوك الفردي ذي المعنى. ينبغي أن لا يخطر لنا ان (الحكومة) التي يراها علم الحقوق هيئة ذات كيان جوهري ومستقل ولها شخصية أخلاقية وحقوقية، شيء ذو كيان ووحدة وشخصية حقيقية. ألا يرى علم الحقوق أن للجنين شخصيته وأخلاقه الحقوقية؟ فهل يمكن أن يكون هذا حجة بيد علماء الاحياء وعلماء النفس، يستندون إليه في القول بأن الجنين كيان حي واع؟ ما (الحكومة) سوى الأفراد المشاركين فيها، بالاضافة الى السلوك ذي المعنى الذي يصدر عنهم. كذلك هي حال (الأمة)، إذ ليست سوى مجموعة من الأفراد بالاضافة الى التعامل الجاري بينهم، ومخاصماتهم، وآمرهم ومأمورهم، واستعمالاتهم للقوة، ودفاعاتهم، وما الى ذلك من أنواع السلوك الذي يصدر عن كل فرد من أفراد الأمة، وهذا ينطبق على جميع المفاهيم المشابهة، كالعائلة، والفئة، والطبقة، والشعب والمجتمع. وهكذا يقول (و بر) عن علم الاجتماع الذي يتعاطاه، و يطلق عليه اسم «علم الاجتماع المدرك»: «ان علم الاجتماع المدرك ينظر الى الفرد وسلوكه كما ينظر الى الذرة كلبنة

في الأساس. وحتى إذا لم يُعترض عليَّ لهذه المقارنة التي لا وجه فيها، أقول ان الذرة هي نفسها تدرك... أما الفرد فيؤلف الحد الأعلى، لأنه وحده الذي يقوم بسلوك ذي معنى»[٢٧]. الخلاصة، ان علم الاجتماع الذي يقول به (ماكس وبر) هو معرفة سلوك الفرد وتفهمه وادراكه، «وهكذا نلاحظ عند وبر وجود لون من الاتجاه الى القول باستحالة النظر الى الأحداث الاجتماعية كما يراها علم الاجتماع من وجهة نظر علم النفس»[٢٨].

الى هنا أنهينا شرحنا لآراء أعظم العلماء الذين يمثلون أصحاب المذهب الاجتماعي والمذهب الفردي. ولربما يعجب القارىء الكريم من عدم ذكر هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) الفيلسوف التكاملي البريطاني، في هذا الفصل، مع انه مبدع النظرية العضوانية Organicism كمدرسة اجتماعية تعطى الجواب على المسألة الموضوعة للبحث، أعني أصالة الفرد أو المجتمع. في الحقيقة، ان ما حملنا على ان نؤجل ذكر سبنسر هو ان رأيه هذا قد فسر تفسيرين متضادين كل التضاد، فهو في التفسير الأول من أشد المدافعين عن المذهب الاجتماعي، وهو في الثاني من أشد المدافعين عن المذهب الفردي، وهو ما سنشرحه فيما بعد. لذلك فقد ارتأينا ألّا ندخله ضمن أي من المذهبين، ثم نورد في نهاية الفصل رأيه وتفسيري نظريته.

كان سبنسر يعتقد ان للمجتمع جسماً حياً ذا خلايا وأعضاء وأجهزة مثل جهاز الهظم والدورة الدموية وجهاز التناسل كتلك الأجهزة التي توجد في الانسان الحي، وهذا الكائن الاجتماعي الحي له خصائص مثلما للكائن الفرد الحي. فهو يحتاج الى الغذاء، وينمو ويتطور، وأثناء ذلك يزداد تعقيداً، وبذلك تزداد علاقات أجزائه بعض ببعض، وطول عمره يعتمد على طول عمر وحداته التي يتركب منها، كما ان تجمع أجزائه وتراكمها يكون مصحوباً بزيادة تنوعه. وبالإجمال، بنية المجتمع وعمل أفراده يشبهان تماماً بنية جسم الانسان وعمل خلاياه وأعضائه وأجهزته.

ان نظرية سبنسر هذه قد فسرت، في الأقل، تفسيرين اثنين:

أ ــ يعقد سبنسر في هذه النظرية تشبيهاً بين المجتمع والجسم الحي. وهذا التشبيه، ككل تشبيه، يوجد فيه وجه للشبه بين المشبَّه (المجتمع) والمشبَّه به (الجسم الحي). فوجه الشبه بينهما هو انه مثلما ان الخلايا المكونة للجسم الحي لا أصالة لها، بل كل الجسم هو الأصل، كذلك الحال مع المجتمع، فحقيقته الأصيلة وبنيته تعودان للكل، أما أجزاؤه ــ وهم الأفراد ــ فحقيقتها فرعية وتبعية ليس غير. في هذا التشبيه يؤكد سبنسر أصالة المجتمع وتبعية الفرد له،

كما يؤكد ان الكل الاجتماعي لا يمكن أن يتبدل الى أجزائه ، أي ان المجتمع كائن له خصائصه الخاصة به ، غير الخصائص الخاصة بكل فرد من أفراده . وعليه ، تجب دراسة المجتمع ككل . أما أجزاء المجتمع ، أي الأفراد والفئات والأصناف والطبقات والمؤسسات ، فانها تترابط فيما بينها كترابط اجزاء الجسم ، أي الخلايا والأعضاء والأجهزة . ان تفكيك المجتمع ثم اعادة تركيبه لا يقل استحالة عن تقطيع جسم الانسان واعادة تركيبه واحيائه . والمجتمع يسير نحو التكامل ككل ، كالانسان تماماً ، عند خلقه في رحم الأم وسيره في طريق التكامل . وهكذا نجد ان «سبنسر في علم الاجتماع قد نظر بطريقة خاصة الى المجتمع ، وهي توكيد (كلية) المجتمع و(الترابط الداخلي) بين أجزائه»[٢٩]

هذا التفسير الذي قبله كثيرون من أصحاب العلوم الاجتماعية . بما فيهم (جورج گورفيج)[٣٠] و(موريس دو ورجه)[٣١] ، أظهر سبنسر بصفته أحد أصحاب المذهب الاجتماعي تماماً . ولهذا قال (دو ورجه) عند الكلام على الانحياز للمجتمع : «ان النظرة العضوانية Organicism هي أدق مظهر تاريخي ومطلق لهذا الانحياز»[٣٢] .

هذا التفسير ، الذي يعتبر النظرية العضوانية مجرد تشبيه لا يقصد منه اظهار المجتمع بمظهر الكائن الحي بالتمام والكمال ، له ما يؤيده في أقوال سبنسر وكتاباته . من ذلك ان سبنسر كان يقول بأن للكل الاجتماعي صفة (الجسم الأعظم) أو (ما فوق الجسم) ، مشيراً الى فوارق أربعة مهمة بين المجتمع والكائنات الحياتية :

١ ــ العضوية Organism [= الجسم : الكائن الحياتي] لها ما يقترن بها بينما المجتمع ليس كذلك . أي ليس للمجتمع جسم متعين .

٢ ــ العضوية متصلة ، والمجتمع مشتت ، إذ إن أفراد المجتمع أحرار في التنقل والتحرك ، وهي حرية لا يمكن التنبؤ بها .

٣ ــ هيكل المجتمع ، أو بنية أجسامه وأجزائه ، ليس له مكان ثابت معلوم .

٤ ــ الوعي في العضوية ، مرتبط بالمركز العصبي ، بينما الوعي في المجتمع لا يرتبط بمكان معين ، بل هو مشتت[٣٣] .

ب ــ ان ما يريده سبنسر و يقصده شيء أكثر من مجرد التمثيل والقياس ، إذ كان يرى ان المجتمع كائن حي حقاً ، بالمعنى الذي يكفي لتوضيح الظاهرات الاجتماعية و بيانها وتفسيرها باستخدام مفاهيم علم الحياة وأساليبه بما يحل المشكلات . و بعبارة اخرى ، ان الباحث

الذي يدرس المجتمع إذا اقتصر على استعمال ما في علم الحياة من مفاهيم ، واصول موضوعة ومتعارفة ، وتعريفات ، وأساليب ، فانه لا يلاقي مشكلاً عصياً على الحل ، ولا يتحير في أمره . يعتقد سبنسر انه يمكن ، بل يجب اكتشاف القوانين التي تحكم العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع والقوانين التي تحكم جميع الظاهرات الاجتماعية بوساطة أساليب علم الحياة ، وإلّا امتنع الزعم بأن علم الاجتماع علم .

ولكيلا يبدو هذا التفسير على شيء من الغرابة ، لابُدَّ من الالتفات ، ولو قليلاً ، الى تاريخ العلم . منذ القرن السابع عشر وما بعده ، حيث زادت الرياضيات والفيزياء معرفة الانسان بالطبيعة زيادة كبيرة ، اعتقد كثير من العلماء والمفكرين ان هذين العلمين قادران على زيادة معرفة الانسان بجميع ظاهرات عالم الوجود من نبات ، وحيوان ، وانسان . ان التقدم الباهر الذي حققه الرياضيون والفيزياويون ، مثل غاليلو الايطالي Galileo Galilei (١٥٦٤-١٦٤٢) ونيوتن البريطاني Isac Newton (١٦٤٢—١٧٢٧)،في بعض ميادين العلوم والمعارف ،حمل بعضهم على الاعتقاد الفج بأنهم يستطيعون استخدام أساليب دراسة الطبيعة الجامدة نفسها في دراسه الاحياء. لقد حسب هؤلاء ان من الممكن دراسة النبات والحيوان بالاستعانة بمفاهيم مثل الجمع، والضرب، والقوة، والجاذبية، والتعادل، والتعالق، والتشتت، والتكاثف، وادعوا ان جميع أبعاد عالم الوجود وأشكاله، وحتى الحياة الانسانية، يمكن تفسيرها وفق قوانين الميكانيك .

يطرح لامتري LaMettrie (١٧٠٩-١٧٥١) الطبيب والفيلسوف الفرنسي ، في كتابه «الانسان- ماكنته» هذا الرأي ، قائلاً: «إن وعي الانسان ناتج عرضي موهوم لحركة الذرات»[٣٤]. يرى أحد مؤرخي العلم ان القول بأن المفاهيم الميكانيكية الفيزيائية قادرة على تقديم تحليل واف لجميع ظاهرات عالم الوجود «ناجم عن المبالغة الطبيعية في تقدير قدرة العلم الحديث الذي طغت سعته على ادراك حدوده الحتمية ، فتأثر بها كثيرون»[٣٥]. على كل حال ، كان الهدف المطلوب هو «تقليص كل شيء في كل العالم الى حد التحولات الكمية المحض ، وايصالها الى عدد محدود من الأشياء التي لا تتحول كيفياً مطلقاً»[٣٦]. ان هذا القسم من التقليص (أو الاختزال أو التحول) Reductionism هو ما يطلق عليه اسم المذهب الآلي أو (الآلية) Mechanism .

في القرن التاسع عشر توصل العلم الى اكتشافات عظيمة ، و بخاصة في علم الحياة (وكذلك الجيولوجيا والكيمياء الآلية) . في هذا القرن كانت مكانة دارو ين Charles Robert

Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) العالم الطبيعي البريطاني ، لا تقل عن مكانة غاليليو ونيوتن في القرن السابع عشر: «لقد أصبح لعلم الحياة من المكانة والمنزلة الرفيعة بحيث ان المتأثرين بالعلم في أفكارهم أخذوا يستعيضون عن المقولات الآلية (الميكانيكية) بمقولات علم الحياة وتطبيقها على العالم... لذلك أصبحت العلاقات الحياتية Organism هي المفتاح لتفسير القوانين الطبيعية تفسيراً علمياً وفلسفياً»[٣٧]. ولم يعد أحد يعنى بايجاد «رياضيات دقيقة دقة الرياضيات الآلية» لسلوك الانسان الفردي والاجتماعي[٣٨]، بل أدرك الجميع ان المكتشفات الرياضية والفيزيائية والميكانيكية ليست قادرة على تفسير حتى عالم النبات والحيوان ، فضلاً على عالم الظاهرات البشرية. غير ان ارهاصة اخرى ظهرت الى العيان ، وهي السعي لتفسير قوى الانسان وأفعاله وانفعالاته النفسية وسلوكه الفردي والاجتماعي على ضوء مفاهيم علم الاحياء ومقولاته. ان القول بأن انفعالات الانسان وخصاله وسلوكه الفردي والجماعي يمكن أن يفسرها علم الاحياء ، وان أساليب علوم الحياة ومفاهيمها تستطيع أن تفسر حتى أدق المشاعر الانسانية ، مثل الايمان ، والحب ، والايثار ، هو قول يعد بذاته اختزالاً وتراجعاً[٣٩].

كان سبنسر يعتقد بهذا الكلام الذي ذكرناه ، أي انه كان يرى ضرورة تعميم مفاهيم علوم الحياة وأساليبها على دراسة قضايا النفس الانسانية وشؤونها ، وهو رأي قال به كثير من المعنيين بهذه العلوم. فمثلاً (گورنيج) يعتقد ان سبنسر «كان يدعو الى نوع من الفردية الطبيعية التي لا تعترف بوجود اختلاف بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية. وعليه ، فان سبنسر كان أول من مثّل الاتجاه الطبيعي في العلوم الاجتماعية ، لأنه ، لوقوعه تحت تأثير خاص لعلم الحياة والقوانين التكاملية ، كان يرى ان لتلك القوانين شمولية عامة»[٤٠]. كما ان (ايان بار بور) Ian Graeme Barbour(مولد سنة ١٩٢٣) الفيزيائي والعالم الديني والمتكلم المسيحي الامريكي ، يقول: «كانت نظرية التكامل في عالم الظاهرات ، عند سبنسر، أكثر من مجرد نظرية في علم الحياة،فقد كان يرى التكامل هو المفتاح الذي يعطي الوحدانية لجميع ميادين العلم. كان يعتقد بوجود الأصل الواحد الذي يصلح أن يطلق ــ حسب رأيه ــ على تكوين كل شيء وتكامله، من النجوم حتى الكائنات الحية والمجتمعات»[٤١].

هنا يتبادر هذا السؤال الى الذهن: كيف تتم معرفة الظاهرات الانسانية ، الفردية والاجتماعية ، وتفسيرها و بيانها عن طريق مبادىء علم الحياة ومفاهيمه وأساليبه؟ و يقول آخر: ما الذي يوجب قبولنا تعميم أساليب الدراسة الحياتية على العلوم الانسانية؟ في الجواب عن هذا

السؤال لابُدَّ من القول بأننا لا يمكن أن نستعين بمبادئ علم الحياة ومفاهيمه وأساليبه في تفسير الظاهرات النفسية إلاّ إذا لم يكن تركيب الجسم البشري تركيباً حقيقياً، وذلك لأنه إذا كان تركيبه حقيقياً، أي ان جسم الانسان أصبح «مادة» و«صورة نوعية» جديدة هي النفس الانسانية، فسنكون في قبال آثار وخصائص جديدة لا نجدها في أي جزء منفرد من أجزاء جسم الانسان. وفي هذه الحالة لا تنفعنا أساليب الدراسة الحياتية التي نفعتنا في دراسة أجزاء الجسم. فلماذا هزمت «الميكانيكية» في ميدان علوم الحياة وهجرت؟ لأن ظاهرات مثل التغذية، والنمو، والتناسل، والدفاع عن النفس، والغرائز الحيوانية، خصائص لاتوجد إلاّ في الكائنات الحية (الحيوان والنبات) ولا وجود لأمثالها في عالم الفيزياء (عالم الجمادات)، وبناء على ذلك لا يمكن تفسيرها على وفق المقولات الفيزيائية والميكانيكية. وعلى غرار ذلك إذا أردنا جر «الميكانيكية» الى ميدان العلوم الانسانية، فلابُدَّ لنا قبل ذلك أن نكون على يقين من أن أيّاً من الظاهرات النفسية والانسانية ليست في الحقيقة جديدة ولا خاصة بالانسان، بل ان جميع الظاهرات التي تبدو انسانية يجب أن تكون لها مصاديق في سائر الحيوانات والنباتات أيضا. وهذا لا يعني سوى ان ما يسمى «الصورة النوعية الانسانية» ويكون منشأ الآثار والخصائص الخاصة التي لا تشاهد في الكائنات الاخرى (سوى الانسان) لا وجود له، أي ان جسم الانسان ليس «مادة» للنفس الانسانية، واذن، يجب أن لا نعتبره مركباً حقيقياً ولا وحدة حقيقية.

وعلى هذا المنوال يمكن أن نستدل على انه لا يمكن تفسير الظاهرات الاجتماعية وتوضيحها بالاستعانة بمقولات علوم الحياة إلّا إذا اعتبرنا تركيب الفرد البشري تركيباً اعتبارياً، أي عندما لا يكون المجتمع مركباً حقيقياً ولا وحدة حقيقية، وذلك لأن اعتبار المجتمع تركيباً حقيقياً يعني الاعتراف بوجود مجموعة من الآثار والخصائص خاصة بالمجتمع مما لا شبيه لها في غير المجتمع، وبذلك لا يمكن تفسيرها بموجب مفاهيم العلوم الخاصة بالمادة العديمة الحياة وعلوم الحياة والعلوم النفسية.

يتبيّن مما سبق اننا إذا قبلنا بالتفسير الثاني للعضوانية لسبنسر، وجب علينا أن نضعه ضمن أصحاب المذهب الفردي، فبموجب هذا التفسير، لم يكن سبنسر يرى ان تركيب المجتمع من الأفراد تركيب حقيقي. وهذا يستدعي لزوم القول بأن جميع الظاهرات الاجتماعية يمكن تأويلها وتحويلها الى ظاهرات ذات مستوى أدنى، أي ظاهرات نفسية أو حياتية. ولم ينثن سبنسر عن التزام هذا «اللزوم». إلّا أن الغريب في الأمر هو انه يؤول الظاهرات الاجتماعية الى ظاهرات نفسية، فقد كان سبنسر ـ بخلاف كُنت ـ من المدافعين عن علم النفس الفردي الذي

كان يراه منفصلاً عن اطاره الاجتماعي وعن علم نفس المجتمع. ولكي يفسر الظاهرات الاجتماعية كان يستعين بقوانين علم النفس (فمثلاً، كان يرى «الخوف من الاحياء» هو مصدر القوة السياسية، و«الخوف من الأموات» هو أصل الدين)[42]، مع ان العضوانية Organicism بحسب التفسير الثاني، تقتضي تأويل ذلك بظاهرات حياتية. وفي الحقيقة ان تأويل الظاهرات الاجتماعية وتحويلها الى ظاهرت نفسية لا هي تنسجم مع تفسير سبنسر الأول للعضوانية، ولا مع تفسيره الثاني لها. فبموجب التفسير الأول، لا تكون الظاهرات الاجتماعية قابلة للتحويل الى أي نوع آخر من الظاهرات، وبموجب التفسير الثاني، يجب ارجاعها الى الظاهرات الحياتية.

نفهم مما سبق قوله ان ما يحول دون تصنيف سبنسر ضمن أصحاب المذهب الفردي أو المذهب الاجتماعي ليس، في الواقع، تفسيرات المفسرين العشوائية، بل هوتنا قضاته نفسه، لأننا نجد كلا المذهبين الفردي والاجتماعي في كتاباته.

ان «العضوانية» بمعناها الأول و بصفتها ضرباً من المذهب الاجتماعي، سوف نعالجها بالنقد فيما بعد. ولكننا هنا نشير الى ان خصائص الانسان النفسية، وهي كثيرة ولا وجود لها في سائر الحيوانات، تكفي لدحض «العضوانية» بمعناها الثاني. أنا شخصياً أؤمن بنوع من الاختزال أو التحويل Reductionism، وهو يعني ان جميع الظاهرات الاجتماعية يمكن في النهاية تحويلها الى ظاهرات نفسية، وهذا النوع من الاختزال هو الذي يطلق عليه اليوم اسم «أصالة علم النفس» Psychologism.

للبحث صلة

الهوامش

١ــ «تاريخ فلسفة الغرب» برتراند راسل. ترجمة، نجف دريابندري، شركت سهامي كتابهاي جيبي، جاب سوم، ١٣٥٣هـ .ش. كتاب سوم: فلسفة جديد، ص ٤١٩.

٢ـ المصدر نفسه، ص ٤٣٨ و ٤٣٩.

٣ـ «مقدمه اى بر فلسفه» ص ١٢٩.

٤ـ انظر الصفحات التاليات من هذا الكتاب.

٥ـ «روشهاى علوم اجتماعي» ص ١٨.

٦ـ المصدر نفسه.

٧ـ «انديشه ترقى تاريخ و جامعه» سيدني بولارد، ترجمة، حسين اسدبور بيرانفر، مؤسسه انتشارات امير كبير، جاب اول، طهران، ١٣٥٤هـ .ش. ص ١٧٨ و ١٩٤.